من روائع «شلى»

للاستاذ ابراهيم سكيك

قدمت فى مقال سابق قصيدتين من روائع قصائد الشاعر الشاب «شلى» واتماما للبحث أقدم للقارىء قصائد أخرى ابدؤها بمقطوعة على لسان السحابة وفيها يقول

أنا التى أجلب وابل المطر للأزهار العطشة من البحار والأنهار

أنا التى أعطى ظلا خفيفا لأوراق الشجر عند الظهيرة وهى غارقة فى أحلامها

أنا نورج أدوس حبات البرد فتضرب الأرض كأنها أسواط فأحيل السهل الأخضر إلى أبيض ثم لا ألبث أن أذيبه برخات من المطر وأضحك بينما أسير والناس تصغى إلى رعودى .

أنا التى أغربل الثلج على الجبال وهى أسفل منى حين تئن أشجار الصنوبر وهى شاحبة، وأقضى الليل على وسادة بيضاء وأنا بين ذراعى الريح العاصف يحركنى انى أراد . وأتنقل بين ابراج عرائسى السماوية مهتدية بنور البرق الخاطف

وعندما يسدل الليل ستار الماء القرمزى على الأرض أطوى اجنحتى لأستريح على وكر من الهواء كما تستريح الحمامة المتعبة فى وكرها، ويتوهج القمر مطلقا اشعته الفضية على سطحى المغطى بالقطن المندوف ندفته يد النسيم فيحدث فى خيمتى الرقيقة ثقوبا تبص منها النجوم فأضحك وأنا أراهن يطرن حولى كسرب من النحل الذهبى .

أنا بنت الأرض والماء وربيبة السماء ، ولم أخرج من الماء إلا بعد أن اخترقت مسام المحيط. فخرجت صافية وتغير شكلى مرات ومرات ولكنى لاأفنى ولا أموت لأنى بعد أن ينتهى المطر وتصفو قبة السماء الزرقاء ويهب الريح من فوق وتخترقنى أشعة الشمس أخرج من كهوف المطر كما يخرج الطفل من بطن أمه أو شبح من القبر لأبنى نفسى من جديد .

* * *

وفى قصيدة ثانية كتبها وقت الضيق عندما كان هجر والده وسمع بانتحار زوجته الأولى التى تركها وتزوج أخرى دون قرار شرعى . فى هذا الوقت من اليؤس وتأنيب الضمير كتب القصيدة التالية وفيها يقول :

أن الزهرة التى تبسم اليوم ، تذوى غداً

وكل ما نرغب فى بقائه يخدعنا ويولى عنا سراعا .

فأى بهجة فى هذه الدنيا التى لا تضىء إلا كما يضىء البرق الخاطف فهو يلمع بشدة ولكن لايدوم ، وهو يسخر من الليل الحالك ويختفى فى الحال .

بذلك من أرضاء أكثر السكان ، وإخماد روح الثورة إلى حد ما بين سكان البلاد إذا نحن صرفنا النظر عن بعض حوادث الثورة التى كانت تظاهر بين الفينة والفينة هنا وهناك فى بعض أنحاء تلك البلاد . وأهمها تلك الثورة التى حدثت سنة ١٨٧٨ م عندما كانت الدولة الروسية مشتبكة فى حرب مع الدولة العثمانية ، ولكن سرعان ما تفرغت الحكومة الروسية لإخماد هذه الثورة بعد تصفية حسابها مع العثمانيين ، فاستطاعت أن تقضى عليها بسرعة ، وعرضت على سكان الجبل الطاعة التامة مع الإخلاص ، أو الجلاء عن البلاد والخروج منها إلى حيث يريدون ، ففضل كثير من سكان تلك البلاد الهجرة منها إلى تركيا فأنزلتهم حكومتها فى بعض جهات الأناضول ، وفى سورية وفى شرقى الأردن وفى العراق حيث لا يزالون يقيمون فى تلك الأنحاء مواطنين مخلصين لأوطانهم الجديدة حيث يلقون من أهل البلاد وحكوماتها كل رعاية وعطف واحترام .

وبقى آخرون فى بلادهم متمسكين بمرى أحكام دينهم وتقاليدهم واستمرت الحال على ذلك حتى كان الانقلاب الشيوعى الذى قلب القيصرية الروسية سنة ١٩١٧ م

هذا عرض موجز للأدوار التى مرت على الاسلام واللغة العربية فى الداغستان قبل الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧ م وأرجو أن تتاح لى الفرصة للتحدث عن الاسلام والمسلمين واللغة العربية فى الداغستان بعد طغيان الشيوعية الحمراء على تلك الربوع فى وقت قريب .

حلوان

برهان الدين الداغستانى

١٨ - ٣٥

انظر إلى الفضيلة تر أنها لا تثبت على حال وتتقلب كتقلب الأيام وإلى الصداقة تجد أنها نادرة الوجود

وانظر إلى الحب تر أنه يبيع النعمة بالكبرياء والوحة باليأس، وبعد فناء جميع المسرات والمباهج ترى أنفسنا في الوجود وعقولنا في التفكير، فما دامت السماء زرقاء صافية، والأزهار باسمة ناضرة، والعيون لم تتغير نظراتها قبل مجيء الليل تملأ النهار متعة وسروراً، وما دامت الساعات الهادئة تزحف ببطء: أفهمك في الأحلام التي لن تفيق منها إلا لتبكي حين ترى الحقيقة

وفي قصيدة ثالثة يخاطب محبوبته بلغة الطبيعة وفلسفة الوجود خطابا شعرياً رائعاً اقتبس معانيه من ظواهر الطبيعة التي شغف بها وأدمج نفسه وروحه فيها فيقول:

* * *

تتحد الينابيع بالأنهار، وتلتقي الأنهار بالمحيطات وتجتمع الرياح الآتية من السماء بعضها ببعض بعاطفة ورقة.

لا شيء في الطبيعة إذاً يظل منفرداً بل يربطه القانون السماوي بشيء آخر ليتحد الاثنان، فلم لا يكون هذا حالي معك؟

أنظري إلى الجبال وهي تقبل السماء العالية عن بعد، وإلى الأمواج وهي تعانق بعضها بعضاً، وكذلك تفعل الأزهار والأغصان وهذه أشعة الشمس تحتضن الأرض وأشعة القمر تقبل البحر، فما قيمة هذه القبلات ان لم تقبلني مثلها؟

* * *

وفي قصيدة رابعة يخاطب الليل وهو يتصوره روحا تسري في العالم فيناجي هذه الروح المحبوبة مناجاة شعرية رقيقة فيقول.

سيري بسرعة يا روح الليل وأنت تجتازين أمواج البحار الغربية بعد أن تخرجي من كهفك الشرقي الكثيف الضباب حيث تنسجين أثناء النهار أحلام الهناء والرعب مما يجعلك في نظرنا مزيجة من الخوف والمحبة، فأسرعي في سيرك.

اتشحي برداء أشهب نسجت خيوطه من النجوم، واحجبي بشعرك الفاحم الطويل عين النهار بعد أن تقبليه حتى تضنيه، ثم تجولي فوق المدينة والبحر والبر والمسي بعصاك السحرية المخدرة كل انسان فهلمي أيتها الروح المرتقبة

عندما نهضت ورأيت الفجر قد لاح تنهدت أسفاً عليك، وعندما ارتفعت الشمس في الأفق، وزال الظل عن وجه الأرض، ثم وقع الظهر ثقيلا على الأزهار والأشجار وأخذ النهار التعب يتحدر ليستريح في مقره رأيت انك قد تأخرت قليلا فتنهدت من أجلك.

* * *

وآخر قصيدة أرغب في الاقتباس منها قصيدة رائعة مطبوعة بطابع «شلي» وتتجلى فيها عبقريته الفذة التي تنسج حول منظر صغير أو أمر بسيط نسيجاً قويا من المعاني المبتكرة والتخيلات الظريفة، فهاهو يسمع غناء قبرة في مساء يوم من أيام الربيع فيناجيها مناجاة الشاعر الفنان الذي ينظر للأمور بمنظار دقيق فيرى ما لا يراه غيره من البشر وتقترن أحاسيس ومشاعر لا تعتري غيره فيعبر لنا عن كل ذلك في قصيدة قوية يقول فيها:

حييت أيتها الروح اللطيفة، إذ لا اتصور انكِ طير لأنك تسكبين قلبك كله في نغمات منسجمة من السماء القدسي أو من جواره

وفي ضوء الشمس الذهبي عندما تميل للغروب وتصبغ الغيوم صبغة لامعة أراك تسبحين مسرعة في الفضاء كما تسبح موجة من الطرب في مخيلة الانسان

وأرى السماء الأرجواني الشاحب يذوب حوله فلك مسيرك كما تذوب نجمة في السماء طلوع النهار، فأنت لا تراك ولكنا نسمع صوتك الحاد البهيج

وها هي الأرض وما حولها من هواء قد أترع بصوتك كما يحصل في ليلة صافية عندما يمطر القمر أشعته اللؤلؤية فيفيض السماء بها

أي شيء أنت؟ لسنا نعرف، ما أكثر الأشياء شبها بك!

هل أنت كالشاعر المنزوي وهو يستنير بأفكاره ويطرب بغنائه الذي لا يطلبه منه أحد حتى يرى العالم مترعاً بالآمال والمشاعر والمخاوف، ذلك العالم الذي لا يعبأ به!

أم أنت كفتاة رفيعة قابعة في برجها الحصين وهي تواسي روحها الرازحة تحت عبء غرام عنيف بموسيقى عذبة في ساعة خفية فتفيض أنغام الموسيقى التي تغرق قصرها؟

أم أنت كوردة تتظلل بين أوراقها الخضراء يفتحها النسيم اللطيف فترسل رائحة زكية تجعل الفراش المتنقل حولها يغشى